قصة قصيرة: تموت الطيور في أقفاصها

حلمي صابر - ١٤٤٣هـ

____



(١)

دخل المعلم صادق في أول يوم من العام الدراسي على الصف الرابع في المدرسة الابتدائية التي بجوار الملعب الرياضي في قريتهم الريفية. يضايقه الشعور بأن المدرسة ملل كبير لكثير من الطلاب. أمر الطلاب بالجلوس ومنعهم من الوقوف مرة أخرى عند دخوله الفصل. عرَّفَ المعلمُ نفسه مباشرة: اسمي صادق محمود عمري سبعة وأربعون عاما، سأدرسكم الحساب والقراءة. رجاءً: لا أحد منكم يناديني يا أستاذ، نادوني بكنيتي التي أحبها : (أبو مصعب). ستدرسون في الصف الخامس مادة النحو وستعلمون الفرق بين (أبي مصعب وأبو مصعب وأبا مصعب)

مشى إلى السبورة ووجهه إليها: اسمعوني جيدا وهو متضايق من همسَات وضجيج الطلاب. لا ينتبه الطلاب إلى المعلم حينما يقابلهم بوجهه حتى ولو عيونهم إليه، لأن عقولهم ليست عنده ولا حتى حوله. فكيف ستكون عقولهم إذا أعطاهم ظهره !. ألتفتَ فجأةً إليهم بوجهه فصمت الجميع وسكت الهمس.
اسمعوني جيدا: إذا أعطيتكم ظهري مرة أخرى فأرموا إلى ظهري أوراقا لكن بشرط أن تكوروها وتقذفوها بقوة لتصلني. واضح ؟ سألهم ليتأكد من استيعابهم لفكرته.

من خبرته بوجوه الطلاب أدرك بأنهم لم يفهموا طلبه. وليوضّح ما أراد، طلب من أحد الطلاب الذي كان نائما في أول يوم في العام الدراسي. طلبَ من النائم أن يقف عند السبورة ويعطيهم ظهره، فكوَّر المعلمُ صادق ورقة وقذفها إلى ظهر الطالب.

أريدكم أن تفعلوا هذا معي. هل وضحتُ فكرتي الآن ؟

أجاب أغلبهم نعم واضح.

سأقف الآن مرة أخرى لكن لا تكتبوا اسماءكم على الورقة ولكن ضعوا رموزا أو حروفا أو علامة ليعرف الرامي ورقته. لا أريدكم أن تخافوا. سَتُعطى الورقةُ الأقوى والأسرع جائزة.

وقف المعلمُ صادق وظهره إليهم ورفع صوته: ارموا الآن. فرمى الطلاب أوراقهم المكورة إلى ظهره وهم يضحكون، شعروا بسرور عظيم وارتفعت أصواتهم بالضحك.

جمع المعلم صادق الأوراق وأحصاها. كانت ناقصة ورقة واحدة؛ فعدد الطلاب اثنان وعشرون. ومجموع الأوراق المرمية واحد وعشرون. سأل المعلم الطلابَ : من منكم لم يرمِ ؟

لم يجبه أحد. كرَّر السؤال ولم يجبه أحد أيضا.

سأل المعلم الطلاب: لماذا رميتم إلى ظهري الأوراق المكورة ؟!

قال هذا أغلب الطلاب: لأنك أمرتنا

فسألهم المعلم: وهل إذا أمرتكم بفعل ولو كان خطأ تفعلونه ؟

صمت الطلاب ولم يجيبوا. .صمتَ ضَحِكَهم ووقعوا في تناقض بين الأمر وتجاعيد عدم الرضا على جبهة المعلم.

هل أحدكم يعرف قصة في القرآن الكريم تشبه قصتنا ؟

صمت جميعهم إلا طالبا رفع يده

نظر إليه المعلم سائلا : ما اسمك ؟.

الطالب: سالم

تفضل يا سالم ما جوابك

الطالب: قوله تعالى (فاستخفَ قومَه فأطاعوهُ إنهم كانوا قوما فاسقين) في سورة الزخرف

المعلم: أحسنت تستحق الجائزة. من الذي استخف قومه يا سالم ؟

سالم: فرعون . ولماذا أطاعوه ؟

سالم: الجواب في الآية نفسها.

المعلم: هل لديك يا سالم قفص عصافير في البيت ؟

صمت سالم ولم يرد على المعلم، وألتفت وراءه إلى المقعد الخلفي جهة اليمين ورفع حاجبيه لصاحبه سعيد.

(٢)

سعيد: أرجوك يا أبي أريد أن تشتريَ لي عصافير. بعض أصحابي في المدرسة عندهم ببغاء تعيد الكلام.
الأب مروان : سنذهب إلى سوق الطيور يوم الخميس إن شاء الله ونشتري؛ فكم ولد عندي !. اسمعْ يا ولدي فِهْمُ الكلام شيء، وإعادته شيء آخر كالببغاء. نظرَ سعيد مبتسما إلى وجه أبيه: شكرا يا أبي ولم يأبه بكلام أبيه عن إعادة الكلام وترديده.
جاء صباح سوق الخميس. كان السوق فوضويا لكن البائعين متوزعون في أمكان مجتمعة حسب النوع. قسم للطيور في أقفاص صغيرة وكبيرة. وقسم للقرود، وقسم لبيع الحبوب والبرسيم الذي يحضره المزارعون. وقسم لحليب البقر والغنم والإبل. سوق الخميس مخصص للطيور والأطعمة وبعض الأواني المنزلية.

فرشتْ امرأة كبيرة في العمر بضاعتها قرب الباب الكبير الخشبي للقصر الطيني القديم المهجور. تبيعُ بهاراتٍ خَلَطَتَها في بيتها وتبيع مع البهارات بعض الفلفل الأحمر المطحون الذي زرعته وجففته وطحنته.

انتبهَ مروان إلى منظرها الصامت المحتشم فاقترب منها وسألها عن الفلفل الأحمر: بكم الكيلو يا أمي ؟ أجابته البائعة العجوز التي لا يظهر وجهها خلف الغطاء السميك. يحترم أهل البلدة الريفية المرأة البائعة الكبيرة كما يحترمون أباءهم وأمهاتهم ولهذا ناداها مروان يا أمي.
أجابته: أربعة
سألها مرة أخرى وكل صحن الفلفل هذا بكم يا أمي ؟
البائعة: بمائة وثلاثين يا ولدي ولك بمئة وعشرين.
مروان: سآخذه كُلُه
البائعة : الله يبارك لك يا ولدي. أفرغتْ البائعة الصحنَ في ثلاثة أكياس ورقية، ونَقَدَها مروان ألفا، فخلف البهارات والفلفل حاجاتٌ لا يبصرها الكثير من الناس. بل بعضهم يفاوضها في السعر لظنه هذا من الذكاء !. تركها وتبعته دعوات البائعة العجوز وهي ترفع حاجياتها استعدادا للذهاب. وما حاجياتها سوى بعض العلب المعدنية المعدودة على بساط مهترئ. هذا فقر متعفف محتفظ بكرامته.

في سوق الطيور أنبهَ الولدُ سعيدٌ أباه مروان إلى ذلك القفص المليء بطيور الهدهد؟.
أظن القفص الذي بجانبه أفضل يا سعيد حجمه أكبر. ابتاع مروان طائرين لولده سالم
سأل بائع الطيور: أية قفصٍ تفضّل ؟
الأب: كل الأقفاص جميلة. وضع يده على القفص الذهبي. ولو تكرمت: ضعْ في القفص كوخا صغيرا.

التفتَ الطائر الهدهد إلى صاحبه في القفص: اصبرْ يا صاحبي ماذا علينا إلا أن نصمت ونصبر. هذا الإنسان يبيع فينا ويشتري. نحن عبثٌ في عبثه. بودي أن أعرفَ لمَ يحبسوننا ؟!. أسمعتَ ذلك الصغير ؟. نعم الذي اسمه سعيد. هو سعيد وأنا كئيب. ذكَّرني الصغير بمن اصطادني في المزرعة عند عودتي بطعام لصغاري. هبطتُ على الحبل لأرتاح؛ فالتصقت ساقي بالحبل لم أكن أعلم حيلة الحبل الممسوح بالصمغ فلم استطع الفرار.

ناديتُ الصياد صرختُ عليه: صغاري سيموتون، كررتُ مرارا. وكلما صرختُ، أعجبه صوتي، فشدَّ عليَّ وثاقي. ثم جمعني بك في هذا القفص الذهبي. هذا الذي قهرني. كأن اللون الذهبي سيغير كآبة القفص اللعين.
هل الحبس في قصر ذهبي يغير من ضيقه وكآبته ؟!
قال الطائر الآخر: حينما اصطادني صيادي، قبل اصطيادك قلت له:
دعني وشأني، اطلقني
أأنت الذي ترزقني ؟!
أنت لم تستطع رَزْق نفسك حتى ترزقني،
مللتُ حَبَّك وطعامك وقفصك
حرمتَ ساقيَّ غصن الشجر،
وحرمتَ جناحيَ الطيران، حرمتني الهواء.
حرمتني العيش كطائر.
كيف بعتَ واشتريت بحريتي ؟!

لم يلتفت الطائر إلى صاحبه وتعلق بالشبك في الجهة الأخرى وهو يهز رقبته إلى الأمام والخلف ويمسح منقاره بالشبك وقال: اِصبرْ واصمتْ حتى نرى ماذا سيحدث مع هذا الصغير الذي زاد أحزاننا. مُتْعته في حبْسِنا. يكادُ القهرُ يحرقني. ألا ترى هذا شيئا غريبا أن يعبثَ بنا هذا الصغير !.
قلت له دعني وشأني، أنا أتدبر أمري.
كرر صاحبه: اصمتْ واصبر.

وفي طريق رجوعهما إلى البيت قال سعيد: لو سمحت ضعْ لنا أنشودة الطائر يا أبي.
الطائر المصموغ: إزعاج جدا يا كئيب. أكرهُ هذا الإنسان الاستبدادي
الطائر الكئيب: ألا يوجد إنسانٌ يدافعُ عن حريتنا ويحررنا يا حزين.

وأثناء رجوعهما بالسيارة في أحد طرق البلدة الريفية، هاتف طارقُ مروانا، وسأله ما عندك من أخبار ؟
طارق: قُبِض على المعلم صادق البارحة ولا نعلم سبب القبض، ولا نستطيع أن نسأل؛ لأن سؤال الأمن السياسي مجازفة خطيرة فقد يحبسونك معهم أيضا. حتى السؤال عنهم جريمة !.
مروان متعجبا : الأستاذ صادق !. لم يجدوا إلا صادق. هو في حالِهِ لا تسمع له صوتا ولا يشارك ولا يخالط أحدا، وليس له في التواصل الحديث مع أنني حاولت مرارا إقناعه، لكنه أصرَّ على رأيه الذي احترمه. كان غير مقتنع بجدواها كان يسميها : تجارة الكلام.

واصل مروان: المشكلة، سيقطعون عنه راتب المدرسة، وزوجه حامل بطفلها الثاني. كانا ينتظرانه بفارغ الصبر؛ لأن الأول مات بمرض السل وهو دون الرابعة.
طارق: ما كنت أعلم هذا !.
مروان: المشكلة لا نستطيع أن نقترب من بيت الأستاذ لاحتمال مراقبته والتصنت عليه. وزوجه ليس لها أهل هنا، أهلها على مسافة بعيدة عنها.
طارق: فعلا إنها ورطة !. ثم سأل: هل تعرفُ أحدا من قرابته أو قرابتها؛ لنتواصل معهم ؟
قال مروان سأبحث. انتهت المكالمة ووصل بيته حاملا القفص الذهبي مبتسما، وسعيد بجانبه تقفز به أقدامه فرحا مسرورا. فلن يعيبه أصحابه ويتنمرون عليه في المدرسة بعد اليوم؛ لامتلاكه الطيور الجديدة. حتى قال في نفسه: أتحداهم إذا عندهم قفصا ذهبيا !.
قال المصموغ للطائر الكئيب أثناء دخولهما البيت: ما زاد حزني إلا إن اسمه سعيد !. أنا أتعجب كيف يكون سعيدا بحبسنا !؟ هذا من عجائب الإنسان الذي حرمني صغاري. باعوا فينا واشتروا، ما أرخصنا عند الإنسان.
وضع مروان قماشا على القفص قبل النوم لئلا يصدرا أصواتا في الليل.

(٣)
طلع الصبح على سجن مجهول، كان فيه الأستاذ صادق محمود في حديث مع نفسه: ليتَ زوجتي تذهب إلى أهلها. فالمكثُ هنا مدته مجهولة وأثناء حديثه مع نفسه اقتربَ عاملُ الصيانة من زنزانة صادق. معذرة يا سجين: سأصبغ القضبان بلون ذهبي. واصل حديثه وهو يمسح القضبان للصبغ بورق التنعيم، وكلَّمَ صادقا غير ملتفتٍ إليه قال لي مدير الصيانة بأن اللون الذهبي مريح للسجين.
صادق: أأنت تمزح أم تهزأ ؟!
عامل الصيانة الصباغ: انظر هذه علبة الصبغ.
صادق: يا رجل نحن في سجن !.
الصباغ: حتى لو كنت في السجن نراعي مشاعرك النفسية.

صادق: اجلس في محلي، وأنا سأصبغ عنك الحديد.
الصباغ: إذن ليس بغريب وجود أمثالك في السجن، تريد أن تجلسني محلك !
صادق: لأجل تحسن نفسيتك باللون الذهبي.

سكتَ الصباغُ وخرجَ ولم يكمل عمله؛ لا زال على بعض القضبان الصدأ، وبعضها بلا صبغ، والبقية باللون الذهبي. تردد الصباغ قليلا عندما مسك مقبض الباب فرجع الصباغ ساخرا بصادق: ما رأيك لو أصبغك باللون الذهبي أيضا مع القضبان ؟!. أراد أن يرشه بفرشاة الصبغ فمنعه دخول جندي الحراسة فجأة متضايقا من رائحة الصبغ وأخذ صادقا إلى غرفة الضابط.

المحقق: أهلا أستاذ صادق
لم يرد صادق تحيته ولم يتوقعها منه أصلا. وواصل المحقق: سأجيئك من الأخير لوقتك ووقتي يا أستاذ.
صادق: تفضل أنا في خدمتك.
المحقق: تعاون معنا
صادق: وكيف أتعاون معكم ؟
المحقق: بالإبلاغ عن الأساتذة وغيرهم في المدرسة الذين يخوضون في موضوعات وقضايا فوق مستواهم
صادق: عفوا يا حضرة الضابط، أنا معلم للصف الرابع الابتدائي، وليس لي علاقة بالموضوعات السياسية أو الاقتصادية أو الإدارية.
المحقق: لكنك قلت في درس القراءة بتاريخ ٣٠ ربيع الآخر في عام ١٤٣٩، ولو أردت تسجيل الحديث والوقت لأعطيتك إياه فهو موثق عندنا.
صادق: تفضل ماذا قلت في درسي ؟
المحقق: قلتَ بأن الحياة الحيوانية تشبه الحياة الإنسانية. فالقوي يأكل الضعيف، ماذا قصدت بهذا ؟ هذا كلام خطير يا أستاذ.
صادق: افترض يا حضرة الضابط بأنني قلت: بأن الحياة الحيوانية تشبه الحياة السمكية في البحر، سمك القرش يأكل السمك الصغير. هل في هذا خطورة أيضا ؟!.
المحقق: أشد خطورة؛ هذا كلام سياسي. هل هذا فعلا رأيك القوي يأكل الضعيف ؟ مثلا المحافظ يأكل المدير، والرئيس يأكل المحافظ. هل هذا الذي قصدته ؟
صادق: يا حضرة الضابط أنت تغير الكلام عن معناه تماما. لم يجيء في ذهني هذا. لا يمكن أيها الضابط أن تحاكمني إلى فهمك الخاطئ. أنت تعاملني ليس كما أنا في الواقع ، إنما تعاملني كما أنا في ذهنك ، وهذا خطأ كبير، إلا إذا كان كل هذا مُعَدٌّ ومجهَّزٌ والحكم جاهز إنما هذا الحديث لتعبئة الأوراق الرسمية !.

ألتفتَ المحقق إلى الجندي وغمزه. دفعَ الجندي بالأستاذ المُكبَّل من الخلف بقدمه وأسقطه على الأرض.
وقال الضابط: خذهُ يا جندي.
قالت أم سعيد لزوجها: لمَ أراكَ مكتئبا ؟. فأخبرها باعتقال الأستاذ صادق محمود. وسألت: وأين زوجته ؟
أجابها: هذه هي المشكلة !، قالت أم سعيد وهي جالسة على الأريكة وساقها اليسرى على اليمنى ممسكةً بكوب عصير البرتقال : هل زوجته عندها خبر ؟ وكيف نتواصل معها ؟ هل سيؤثر الخبر على وضعها الصحي لأنها في شهرها الأخير
هي نفس أسئلتي يا أم سعيد.
أين سعيد ؟
مع الطيور. ذوقك أعجبني في اختيار القفص الذهبي. لكن بعض صبغ القفص منقشع، فعليك أن تفكر في صبغه مرة أخرى. وضعتُ بجانب القفص ورودا للطيور. وواصلت حديثها: أظنُ الورد البلاستيكي أفضل لأنه يدوم وأوفر لنا. ثم هذه الطيور لا تستوعب جمال الورد ورائحته.
مروان: معك حق. بعد إذنك يجب أن اذهب عندي محاضرة في الجامعة. هاتف مروان الدكتور طارق: هل في أخبار جديدة عن الأستاذ صادق. أجابه: علمي علمك كأننا في كهف مظلم.

أرجوك يا دكتور طارق لا تتكلم بمثل هذا في الهاتف. سؤال يا دكتور مروان: أخبرنَي ولدي سالم بأنك اشتريت طيورا لسعيد، وأزعجني بأنه يريد مثلها. وأنت تعرفُ موقفي من حبسِ الطيور.
مروان: اطْعِمها ولا عليك حرج وإن حبستها في القفص. قال طارق وهو ينقل الجوال إلى الأذن الأخرى: ما الفرق بين حبس طيورك وحبس الأستاذ صادق ؟
مروان: لا تبالغ
طارق: أنا جاد في سؤالي ما الفرق في الحبس ؟
مروان: هذه طيور لا تعقل، وهذا إنسان يعقل.
طارق ساخرا: يا رجل هذه طيور تعقلُ أحسن منك فيما يتعلق بحياتها وطيرانها وغذائها وغيره مما يصلح لمعيشتها. هي أمم وقبائل وأنواع وعجائب لا تفهم عُشْرُه
مروان: أقول لك، لا تُعقِّدْ الموضوع. يهمني سعادة سعيد، وهذه الطيور تسعده.
طارق: يا رجل أصبتني بالاكتئاب، تجعل سعادة ولدك بشقاء الطيور.
مروان: يا أخي نحن نطعمها !.
طارق: هي تعرف طعامها أحسن منك. ليتك تعطيها ملعقة وشوكة قالها طارق ساخرا، ورفع صوته :يا رجل هذه طيور بأجنحة لتحلّقِ بالهواء وتنتقل وتلعب وتغرد وتستمتع بحياتها، لكنك أنت أشقيت حياتها بقفصك.
سؤال: لماذا لا ترضَ بحبس الأستاذ صادق، وترضى بحبس طيورا خُلِقت حرة ؟!

مروان: أرجوك غيِّر هذا الموضوع. ستبدأ المحاضرة بعد قليل.
طارق: ناقشِ الطلاب في سجن العصافير. لكنك لن تفعل لأن هذا موضوع خطير لا يصلح للطلاب فقد يفهمونه بطريقة مختلفة خاصة مع موجة الحبس الجديد في البلد. أنت تعرف بأنني لم أرضَ لولدي سالم أن يملك طائرا في قفص
مروان: أنتَ تعرف بأنه لا يصلح مناقشة الطلاب في موضوع حبس العصافير.
طارق: أرأيت العلاقة بين حبس الناس وحبس الطيور.

الطائر الكئيب: علينا أن نجد طريقة للهروب من هذا الحبس.
الطائر المصموغ: هذا الذي كنت أفكر فيه.
الكئيب: اسمعني إذا جاء هذا الولد الشقي ليغير الماء، سأعضه بيده، وأنت اهربْ بسرعة من فتحة الباب.
المصموغ: وأنت ؟
الكئيب: أنا سأتدبر أمري لاحقا، المهم نجاتك الآن من هذا المكان الكئيب.
فعلا سمعوا صراخ سعيد. هرولت والدته إليه ورأت أصبعه ينزف، ورأت طيرا واحدا فقط. أخبرها سعيد بأن الثاني هرب من النافذة.
لا تحزن يا ولدي سأجيئك بطائر جديد. لم تكن العضة قوية، وقف الدم بسرعة. وبعد أيام جاءوا لسعيد بطائر جديد.
وبعد ثلاثة أشهر، صار في القفص ثلاثة بطائرهم الصغير الجديد. ازدادت كآبة الكئيب ومات حزنا على وضعه الجديد. محبوس وزوجه مع ولده الجديد. كيف سيتعلم الصغير الطيران، وكيف سيتعلم اصطياد الديدان، وكيف سيتجنب شر الإنسان ؟. ازدادت كآبته، وبعد أيام، وجدوه في الصباح ميتا. ظنوا موته من الحشرات. لم يتصوروا بأنه مات من الأحزان.
كَبُرَ الطائر الصغير، وقال مرة للدكتور مروان: أريدك أن تكتب رسالة. لم يصدق في بداية الأمر طلبه. كرَّر الهدهد الصغير طلبه. قاطعه مروان: وأين سعيد عنك ؟ قال له: سعيد لا يبالِ ولا يهتم. واصل الهدهد الصغير موضحا: سأكتبُ رسالة إلى الأستاذ صادق، لأنني سمعت بأنه محبوس مثلي.
مروان: أيها الطائر قفصك من ذهب !.
الهدهد: ضع سعيدا معي !.
مروان: لا يمكن، فقفصك صغير.
الهدهد: زِدْ في حجمه ليسعَ سعيد أيضا. أرادَ مروان أن يستحمقَهُ: لن ترضى أمه.
الهدهد: وهل أمي راضية بحبسك لي ؟!.
خرجَ مروان من الغرفة مغضبا ضائقا حائرا فسماع الحق شيء، والقبول له شيء آخر.

جاء الجندي ذو الشريط الواحد بالأستاذ صادق إلى غرفة المحقق مرة أخرى.

الضابط: تعاون معنا يا أستاذ صادق.

صادق: أنا لا أتدخل في هذه الموضوعات.

الضابط: ألا يهمك أمن البلد ؟!.

صادق: أنا أساهم في أمن البلد بتعليم الطلاب.

الضابط مبتسما ساخرا: تعلمهم بأن السمك الكبير يأكل الصغير.

صادق: كما تأكلني أنت الآن ؟!.

غضب الضابط وصفعه كفًّا. كل شيء مباحٌ في هذا المكان لا حدود ولا قيود ولا أحد يسأل أو يتابع ما يجري في السجون. يحسن السجن فقط عند زيارة الوفود وفي تصوير البرامج التلفازية للدعاية التسويقية لأية دولة. الشركات تسوق المنتجات، والبلدان تسوق استبدادها. عند مجيء الوفود حتى الطعام يغلفونه بالبلاستيك. وعند خروج الوفود، ترجع أوعية الطعام القذرة المخفية.

صادق: أليس من العيب أن تضرب من كان في عمر أبيك. اصطبغَ وجهُ الضابط باللون الأحمر وأعادَ الكف. صرخَ في وجهِ صادق: منْ أنتَ لتجادلني. رمى الضابط نفسه على الكرسي مكفهرا وأعطى الجنديَ ملف التحقيق، وأرفق ورقة صغيرة بمشبك على غلاف التقرير. مكتوب على الورقة بخط قبيح: إلى القاضي. خذه يا جندي.

(٤)

القاضي: أفسدتَ الطلاب !.

صادق: يا حضرة القاضي بماذا أفسدتهم ؟!.

القاضي: شبهت حياتنا بحياة الحيوانات.

صادق: يا قاضي أنا أدرِّس الطلاب درس القراءة وفيها قصصا عن الحيوانات

القاضي: لكنك تعلم الطلاب التمرد ؟.

صادق: لم أفعل هذا !. أنت تتهمني بأمرٍ لم أفعله ولن أفعله.

القاضي: أعندك أقوال أخرى ؟

صادق: الله يرضَ عليك حضرة القاضي أريد أن أعرف هل ولدتْ زوجتي ؟ مضت ثلاث سنوات عندكم، ولا أعلم عنها شيئا. ردَّ القاضي عليه بلا مبالاة: مضتْ عليك ثلاث سنوات، وبقي سبعٌ. خذه يا جندي. نظر صادق إلى القاضي مقهورا وتمتم في نفسه: ميزان معووج، بمثاقيل الظلم والاستبداد؟!.

مات العصفور الصغير، وماتت قبله أمه في القفص الذهبي. أملى العصفور رسالته على مروان قبل موته متسائلا: لِمَ حبستني ؟!. لمْ ترْضهُ لولدك سعيد! فلِمَ رضيته لي ؟! أنا أحقُ بالحريةِ من ولدك، أنا طائر أطير وأكتب.

ولدتْ زوجُ صادق. وأسمتْ الولد " محمود " على جده لأبيه. عمره اليوم ست سنوات لم يرَ أباه بعدُ. أُوقِفَ راتبُ الأستاذ صادق من التعليم، وهي مُنِعت من التدريس في الجامعة خشية إفساد البنات أيضا. تعلمتْ أم محمود الخياطة لكسب المال. أتلفَ مروان القفص الذهبي وصار ينثرُ الحب للعصافير في الحدائق لشعوره بالذنب بأنه كان سجَّانا.

وأيقن مروان بأن حبس الطيور ، كحَبسِ الأستاذ صادق. زادوا مدة الحبسَ على الأستاذ صادق خمسَ سنوات إضافية، فصارت خمسة عشر عاما بلا أية تهمة سوى إفساد الطلاب وهي تهمة واسعة تدخل فيها ما تشاء وتخرج منها ما تشاء. نرجو بألا تضاف سنوات مرة أخرى؛ لأن القانون قانون المزاج والرغبة. أكملوا صبغ زنزانة صادق باللون الذهبي. هاجر الدكتور طارق، ولم يترك عنوانا؛ لأن صاحبه في الأمن حذره بأنه مدرج في القائمة. أدرك أنَّ اللعبة الجديدة التخويف بالحبس.

وفي أحد الأيام، طلب صادق من حارس الأمن أن يرميَ ظهره بورقة مكوَّرة كما فعل مع الطلاب لكن الحارس اعتذر إليه لضعف بصره فطلب من صادق أن يقترب من القضبان. وحينما اقترب غرسَ الحارس قضيبا صدئا من حديد في ظهره بشدة حتى أنه مزق قميصه وأدمى ظهره. صرخ صادق ألما. بصقَ الحارسُ عليه وتركه.

قال صادق في نفسه وهو يحاول أن يصلَ إلى الجرح ليضع عليه خرقة اقتطعها من قميص السجن فتلطخت بعض أصابعه بالدم الذي مسحه من ظهره. علمته خبرته بأن هدف تعليم الطلاب بالدرجة الأولى طباعة المواطنين كطباعة الجنود بالذل والإهانة لاعتياد الطاعة، وكل الأوطان كهذا. بل أوطانٌ تطبعُ أوطانا على الشحاذة !.

(٥)

ألتفتَ صادق إلى كلمة مكتوبة باللون الأحمر على الجدار بين قوسين (أختنقُ) التي تلاشت نقطة القاف الثانية مع الوقت. لم يكن معه قلما، فوضع النقطة الناقصة من دمه.

انتهى